على اضافة الماء اليه، ما استطعنا الى ذلك سبيلاً. هذه الفكرة يمكن ترجمتها اجرائياً، في عملية ادارة الصراع العربي ـ الاسرائيلي، بقبول مبدأ الارض مقابل السلام؛ باعتباره ركيزة لاستراتيجية تفاوضية قادرة، إنْ أحسن العرب رسمها، ان تؤدي الى تدعيم موقف العرب التفاوضي، وايقاف تدهور الوضع العربي، واعادة بناء النظام العربي على أساس جديد وسليم، تبدأ ببناء الصمود، وتتقدّم بخطوات محسوبة على طريق تحقيق الأهداف القومية العليا.

قد يبدو هذا الكلام انشائياً. لكنه، في الواقع، غير ذلك، لأن اسرائيل لا تزال، وستظل، ترفض مبدأ الارض مقابل السلام. وما يدور في ذهن أكثر الاطراف اعتدالاً في اسرائيل هو سيناريو مختلف تماماً، هدفه اجهاض الانتفاضة مقابل نوع من الحكم الذاتي، لا يختلف كثيراً عن المفهوم الاسرائيلي، كما ورد بشأنه في اطار اتفاقيتي كامب ديفيد. لكن في مقدور العرب ان يطرحوا استراتيجية مضادة تستجيب لضغوط البيئة الخارجية غير المواتية في المرحلة الراهنة، دون ان تصادر حقوق العرب الثابتة وأهدافهم المستقبلية. ويمكن تصوّر ملامح هذه الاستراتيجية كالتالي:

١ ـ اعلان جميع الدول العربية، بما فيه سوريا، دون أي لبس أو غموض، وبأوضح طريقة ممكنة، قبولها بمبدأ «الارض مقابل السلام»، واستعدادها لتوقيع اتفاقيات سلام مع اسرائيل، اذا قبلت اسرائيل هذا المبدأ، وبدون أي شروط مسبقة، وهو ما سوف يعني، عملاً، قيام دولة فلسطينية على الارض الفلسطينية المحررة؛ والبدء، فوراً، بطرْق كل السبل، واتخاذ الاجراءات اللازمة كافة للتسوية على هذا الاساس، مع اظهار أكبر قدر ممكن من المرونة.

٢ ـ نظراً الى ما هو متوقع من ان اسرائيل سوف تثير العقبات كافة للحؤول دون مقايضة الارض بالسلام، وان المناورات الاسرائيلية، والمناورات العربية المضادة، سوف تستغرق وقتاً طويلاً، يتعيّن على العرب تعظيم أدوات الضغط التي بأيديهم، وفي مقدمها الانتفاضة الفلسطينية، التي يتعيّن دعمها بكل الطرق، وضمان استمرارها، والاستفادة من الوقت لبلورة: (أ) آلية جديدة للدفاع العربي المشترك؛ (ب) خطة عربية محدّدة الأبعاد والأدوار لتحسين أوضاع التوازن الاستراتيجي بين العرب واسرائيل، والمختلّة، الآن، لصالح اسرائيل؛ (ج) اعداد البدائل المدروسة لخطط عربية مشتركة، في حالة فشل المفاوضات العربية ـ الاسرائيلية على أساس مبدأ مقايضة الارض بالسلام.

ان هذه الاستراتيجية تقوم على دعامتين رئيستين ومتكاملتين عضوياً، بحيث لا تستقيم أي منهما بدون الأخرى: جدية التفاوض، وجدية الاستعداد للحرب. فجدية التفاوض تسهم في فتح الطرق المغلقة وتذليل العقبات التي تحول دون تحقيق التوازن الاستراتيجي، وربما تحدّ من سباق التسلّح المجنون، على عكس ما يشتهي الطرف الأقوى؛ وجدية الاستعداد للحرب تعكس نفسها على مائدة التفاوض، وتحثّ العدو على اظهار مزيد من الجدية في الرغبة في التسوية.

وهذه الاستراتيجية تراهن، في الواقع، على تصلّب العدو. وهو رهان أعتقد بأنه في موضعه، لأن منطق الدولة الصهيونية يقوم على التوسّع والحرب وخلق بؤر التوتر. ولأن عقلية اسرائيل تماثل، تماماً، عقلية اللص، فاننا على يقين ان اسرائيل لن تقبل ان تسير على طريق مقايضة الارض بالسلام حتى نهايته. فاللص الذي سرق «الشقة» لن يقبل، مطلقاً، اقتراح المالك باقتسام محتوياتها معه، حتى ولو كان مخلصاً في اقتراحه، لأنه لن يصدّق، أبداً، ان يقبل صاحب